مجموعة محمد وصحبه :

سائل بار

و

بين أخوين

إعداد

أمير سعيد السحار



الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي بالفجالة

رسوم
عبد الرحمن بكر

سائل بار !!

كان أُسَيْد بنُ مالكٍ بن ربيعةَ رضى اللّه عنه من الأبطالِ المجاهدينَ الّذين شهِدوا بدرا ، وأُحُدا ، والمشاهدَ كلَّها مع رسولِ ﷺ . وابتلاه اللّهُ سبحانَه آخِرَ أيامه قبل مقتِلِ عثمانَ - رضى اللّه عنه - بالعمَى ، وفقْدِ البصر ، فرفع بذلك درجتَه ، وأعلى مكانتَه .

وكان أُسيدُ يُحبُّ الرّسولَ الكريم ، ويحرِصُ على ما يُقالُ فيه من أمورِ الدِّين ، ومسائلِ العلم والعِرفان .. وبينما هو ذاتَ مرّةٍ فى مجلسِ الرسولِ ﷺ ، أقبل رجلٌ من بنى سلَمَة ، وفى نفسه شىءٌ يُريد أن يستوضِحَ فيه رسولَ اللّه

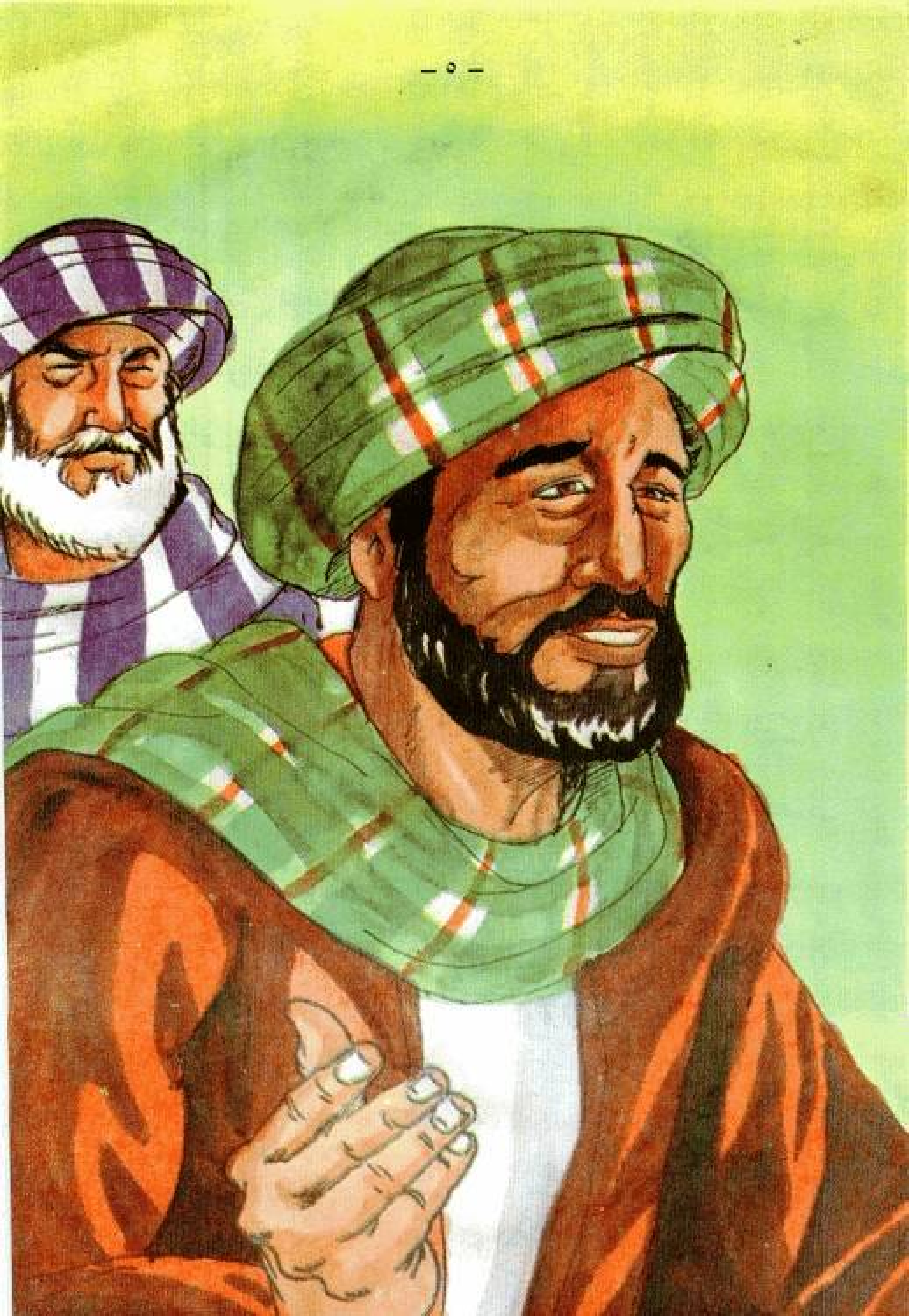


فقال فى احْترامٍ ووقار :

ـ يا رسولَ اللّه ، هل بقى من برٍّ أبوىَّ شىءٌ أبرُّهما بـه بعدَ موتِهما ؟ لقد بذلتُ كلَّ ما فى وسعى من البر لهمـا ، وطاعتِهما أثناءَ حياتِهما ، وأعتقدُ أنّـه مـن البِرَّ لهما بعدَ الممات أن أبحثَ عما يُفيدُهما ، ويُنزلُ عليهما رحمةً وعطفا.. !!

وأصاخَ منْ فى المجلسِ حولَ الرَّسول ، فهذا سؤالُ كلِّ فرد ، ومسألةٌ تَعنى كلَّ إنسان .. فمن لا يُريدُ أن يبَرَّ والِديْهِ بعدَ الممات حتّى يتّصل البِرّ، ويبقى الفضلُ والوُدّ .. ؟





فقال عليهِ الصَّلاة والسَّلام :

ـ نعم ، الصلاةُ عليهِما ، والاسْتِغفارُ لهما وإنفاذُ عهدِهما من بعدِهما وصِلةُ الرَّحِمِ الّتى لا توصلُ إلاّ بِهِما ، وإكرامُ صديقِهما .. !!

وانعقدَ ما بين الحَواجِب ، ولاحتْ علائمُ الفِكرِ على الوُجوه ، وراحَ كلُّ فردٍ من هؤلاءِ الأفذاذِ يفكّر فيما سمع .

فهذا لا يكادُ يفهم معنَى الصّلاةِ على الوالِدَين ، فهو يُصلّى الصَّلاةَ المفروضة ، وهى أقوالٌ وأفعالٌ تبَتدئُ بالتّكبير ، وتنتهى بالتّسليم على كيفيةٍ خاصَّة بأركانٍ وشُروطٍ مَعلومَة ، ولكنّه يفهمُ أيضاً

أنَّ الصَّلاة على الرَّسولِ هو الدُّعاءُ له ، والصَّلاةُ من اللَّهِ سُبحانَه وتعالى هى الرَّحمة . إذن فالصَّلاة على الوالدين الدُّعاءُ لهما بالرَّحمة ، والمغفِرَة ، والعفوِ الشّامل ، الذى يمحو الذَّنب ، ويُعلى المكانةَ والمنزلة .

وهذا يفهم معنَى الصَّلاة، ولكنه يعرف أيضاً أنَّ الاسْتغفارَ هو طلبُ المغفِرة ، والصَلاةُ تفيد هذا المعنى .. إذن فلا مَناصَ من اعتبارِ الصَّلاة أعمّ ، وأشمل .

وأمّا الثّالث فيعرِفُ هذا كلّه ، ويعرِفُ كذلك إنفاذَ العهدِ وهو كلُّ ما قطعاه قبلَ المماتِ على أنفُسِهما ، من وصيَّةٍ وصدقة وتبرُّعٍ للفُقراءِ والمساكين ، إلى غير ذلك مما تجرى به العادةُ قبل الوفاة ، وخاصَّةً إذا طالَ مرضُ الموت ، ولكنّه يُعجَب لأنَّ هذه الأشياءَ تكادُ تكونُ طبيعيةً فى النّفس ، وخاصةً صِلَة الرَّحِم ، وإكرامَ صديق الوالِدَين ،

فكيف يُعطى اللّهُ ثواباً على هذا ؟ ثمَّ كيف يكونُ هذا بِرّاً بالوالدين بعد موتهما ؟! إنَّ اللّه سبحانَه مهَّدَ للإنسان طريقَ الخيرِ إلى حدٍّ كبير ، وجعل له فُرصَةً سانحةً فى كلِّ عملٍ من الأعمال . إنّه مُجرَّدُ الفضلِ العظيم والمِنّةِ الجليلةِ الّتى لا تقِفُ عند حدّ .. وهل بعد إثابةِ اللّهِ العبدَ على إتيانِهِ أهلَه ، ولذّتِه الّتى يهواها ويُحبُّها ، ومُتعته الّتى يسعَى إليها ويُريدُها ـ هل بعد هذا عجبٌ ودَهشة .. أجل إنّه الفضل ، والفضلُ الإلهىُّ لا غير ـ وليس أدلَّ على ذلك أيضاً من النّيةِ واتّجاهها إلى الأعمال .. إنَّ الإنسان يأكل ويشرب ، وفى مُكنَتِه أن يُحوّلَ هذا كلّه إلى عملٍ فيه أجر ، وعِبادةِ اللّهِ جلَّ شأنه ، وذلك حين يقصِدُ بطَعامِه وشَرابه أن يُقوّيه اللّهُ على عبادتِه ، ويُعينَه على المجاهدةِ والمصابرة ، ومُناضلةِ النّفس والهوَى والشّيطان .. !!

وبقِى السّائلُ فى نفسِهِ خلجَةٌ حائرة.. فهو لا يدرى





علـى وجـهِ التّحقيقِ كيـف يصـلُ هـذا الأجـرُ وذلـكَ الثّوابُ ، إلى والديه ، مع أنّهمـا قـد فارقـا الحيـاة ، واللّـه يقول : « وأن ليس للإنسان إلاّ ما سعَى » بيد أن تفكيرَه لم يُطل ، وسرعانَ ما زالـت تلـك الخلجةُ المضطربـة ، حينما تذَكّر أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال :

« ينقطع عملُ ابنِ آدمَ إلاّ من ثلاث : صدقـةٍ جاريـة ، وعلمٍ يُنتفعُ به ، وولدٍ صالحٍ يدعو له .. » .

ثم علم كذلك أنّ السَّبب في ذلـك واضحٌ إذا أنعمَ النّظر ، وهـو أنّ والديـه سببُ وجـودِه . كأنّما عملُـه الصّالحُ امتدادٌ لعَمِلهما ، وهنـا أخذتـه موجـةٌ من الفـرحِ والابْتهاج ، إذ عرفَ مِفتاحَ السّرِّ الّذى يرجوهُ ويتمنّاه .. عـرَف كيـفَ يبـرُّ بوالديـه بعـد مماتِهمـا ، وقـام مـن مجلسِ الرّسولِ وكأنّما هو قطعةٌ مجسّمةٌ مـنَ النّشـاطِ والفرَح .. إنّه يسرعُ يريدُ أن لا يُضيّعَ على والديه فرصةً ما دام حيّا ..

بـين أخـوين .. !!

لم يكن مُحمَّدُ بن الحنفيَّةِ بالرَّجُل الغِرّ ، الّذى يُخدَع بكلامِ النّاس ، ويُنصتُ لوشاياتِهم ، ويستمعَ لأقاويلِهم .. فهو ابنُ علىّ بنِ أبي طالبٍ كرَّم اللَّهُ وجهَه .. عريقٌ من هذه النّاحية ، فيه مَناقبُ الطّالِبيّين من جُرأةٍ وإقدامٍ ، ومُروءةٍ وشَهامة . وهو ابنُ خولَةَ بنتِ جعفر الحنفِيَّة . ولهذا يُنسَبُ إليها تميزا له عن أخوَيهِ الحسنِ والحُسَين رضى اللَّهُ عنهم جَميعاً . وله من والدتِهِ طِباعَ ومَحامدُ كانت له صَفَحَاتٍ بَيضاءَ فى حياتِه بين شتّى القبائل ، ومُختلفِ الطّبقات .



ولكن أبى أشرار النّاس وشرارهم إلاّ السّعىَ بينه وبينَ أخيهِ الحسنِ بالوَقيعة ، والوِشايَةِ والنّميمة . وهذا دائما شأنُ بعضِ النّاس فى مُختلَفِ العُصور والأزمان ، لا يُرضيهم أن يهنأَ إنسان . أو يَطمئِنَّ له خاطر ، أو يَسعدَ بالقُربِ من صَديقِه أو قريبه أو أخيه .. يالله .. لكأنّما كان الصّفاءُ بينهما قُرحةً فى جسمِ هؤلاء النّمامين . وشوكةً فى ظهورِهم ، ووخزةً تخزِهم ، وتؤلمُهم وتُضنيهم على الدّوام .. !!

وما أقسَى الوقيعةَ بين آل بيتٍ واحد ، وخاصّةً إذا كان هذا البيتُ أشرفَ البيوتِ على الزّمَن ، وأحبّها عند اللّه .

وفكّر ابنُ الحنفيّةِ فى الأمر ورأى أنّه ليس من الصّالحِ العامِّ أو الخاصِّ أن تتّسعَ الهُوَّةُ بينه وبين أخيهِ الحسن ، وأنّه لمن الظّلم البيِّن ، والخُسران المبين أن يُمكّنَ الواشى ممّا يُريد ، ومن الحقِّ الواضحِ والعدلِ الحَبيبِ أن يُضيّعَ عليه هذه الفرصةَ ليقعدَ بها على الدّوامِ متألّما محسورا .

وإنّه ليعلمُ أنّ أخاهُ الحسَنَ على درجةٍ من الفضلِ والورَعِ والتّقوى لا تُدانيها درجة ، وأن اللّه سُبحانَه وتعالى بارك فى نِسائه وجعل منه الذُرّيّةَ الصّالحة ، وأنّ ذراريه بعونِ اللّهِ ستكونُ فى طليعةِ المنتَسِبين إلى الرّسولِ الكريم صلواتُ اللّه وسلامُه عليه ، وأنّه رفض الدُّنيا وطلّقَها ثلاثا كما رفضها وطلّقها أبوهُ من قبل ، وأنّه يمتاز عنه بأنّه ابنُ الزّهراءِ حَبيبَةِ الرّسول ، والأثيرةُ لديه ، الطّاهرةُ البَتول ، سيّدةُ نساءِ أهلِ الجنّة . وأنّ كرمَهُ وجودَهُ بلغَ الغايَة ، وجاوزَ

النّهاية ، فلا يَـرُدُّ سـائلا ، ولا يقطـعُ نـائلا . قـوىُّ الحُجَّـة ، واضـحُ البرهان . مدَحَه شاعر ، فأجزل له العَطاء ، فليمَ على ذلك فقال :

ـ أتُرانى خِفتُ أن يقولَ لستُ ابنَ فاطمـةَ الزَّهراء بنتِ رسـولِ اللّه ، ولا ابنَ عليِّ بنِ أبى طالب ، ولكِنّى خفتُ أن يقـول : لسـتَ كرسولِ اللّه ، صلّى اللّهُ عليـه وسـلَّم ، ولا كعلـىٍّ رضـى اللّـه عنـه فيصدَّق ، ويُحمَل عنه ، ويبقى مُخلَّداً فى الكتب ، محفوظاً على ألسنة الرواة ، فقال الشاعر :

أنت واللّهِ يا ابنَ رسولِ اللّـ ـهِ أعرفُ بالمدح والذّمِّ منّى

وحقًا لقد كان الحسنُ على ما وصف الشّاعر ، بصيرًا ـ بجانب هذه الصفاتِ كلّها ـ بمواضعِ الكـلامِ ومواقعِـه ، عالمًـا بأسـرارِه ومحاسِنِه ، يُلجمُ من يُحاجُّـه ويُفحِمُـه ، وما حادِثتُه مع حَبيبِ بنِ مَسلَمةَ الفَهدِىِّ ببعيد . إذ قال لحبيب :

ـ ربَّ مَسيرٍ لك فى غيرِ طاعةِ اللّه !

قال حبيب : أمّا مسيرى إلى أبيك فليسَ من ذلك .. !

قال الحسن : بلى ، لقد قعدَ بك فى دينِـك ، فلـو أنّـك إذ فعلتَ



شرًّا قلتَ خيراً ، كنتَ كمن قالَ اللّهُ عزَّ وجلَّ ﴿ خلطوا عملاً صالحاً وآخرَ سيئًا ﴾ ولكنّك كما قال ﴿ كلا بل رانَ على قلوبِهم ما كانوا يكسِبون ﴾ .. !

وهكذا مضى ابنُ الحنفيَّةِ رضىَ اللّه عنهُ يَستعرِضُ حياةَ أخيه الحسَن ، ويعِزُّ عليه أن تُفلحَ معهما وشايَةُ الواشى ، وكيدُ الكائد وبَغىُ الباغين !

إذنْ فعليه أن يُعالجَ الأمرَ من طريقِ الخيرِ كعادَته دائماً فى كل أعمالِه ، والخيرُ هو الطَّريقُ الواضحُ المعالم ، البيّنُ النَّهج ، ولا يَضيع الإنسانُ إذا لزِمَه على الدَّوام .. ولكنْ أيذهبُ إلى الحسَنِ ويشرحَ له الموقف ، ويطلُبُ منه الصَّفحَ والعَفو ، ويرجوه أن يغفِرَ له ما قاله الواشى عنه جُملةً بلا تفصيل ، ولا داعِىَ للنّقاشِ والمُلاحاة ، والأخذِ والرَّد ، فذلك حبلٌ يَطولُ ويَطول ، ولا يكادُ يصِلُ إلى غايَة، أو يَنتهى إلى نهاية ؟! أم يُرسِلُ إلى الحسن رُقعةً يُبيّن له فيها ظروفَه ، ويشرحُ حالتَه ، وهذا أسلمُ طريقٍ فى رأيِه ، إذ ربَّما يكونُ فى اللّقاء ما لا يُحمَد عُقباه ؟

وهكذا ظلَّ محمَّدُ بن الحنفيَّةِ يُقلّبُ الأمرَ على وُجوهِه المُمكنة ، وحالاته المختلفة ، ليصِلَ إلى أهوَنِ الطُّرق ، وأسلَم السُّبلِ ، وكلُّ غايتِهِ ومُناه أن يصِلَ ما يكادُ يقطعُهُ الواشى بينَه وبينَ أخيه ، أحَبِّ النَّاسِ إليه وأقربِهم إلى نفسِه وفؤادِه ،

وأخيرًا راقت فى نظرِه فكرةُ الرِّسالة ، لأنَّها ستُترجِمُ عمّا فى نفسِه . وتُعبِّرُ أجملَ تعبيرٍ وألطفِه وسيكتبُها بأسلوبٍ آخرَ لم يعرف له النَّاسُ مثيلاً من قبل ، سيتنازلُ عن كِبريائِه إلى حدّ ، وسيُحاول

جهدَ الاستِطاعةِ أن يضعَ أخاهُ في موضعِهِ اللائقِ بِه ، تجلةً واحتراما .. إنَّ اللّينَ والحيلةَ هما أساسُ الصّفاء والوُدّ ، ومنهلُ الإخلاصِ والعَطف ، فلِماذا لا يلوذُ بهذه الصّفاتِ الجَميلة في ، عسى اللّهُ أن يُفرّجَ كُربَتَه ؟! وكأنّما أُلهمَ هذه الفِكرةَ فقامَ من فَوره . وأمسكَ بالقلم وراح يُسطّر : « أمّا بعد ، فإنّ أبي وأباك عليٌّ بنُ أبي طالب ، لا تفضُلُني فيه ولا أفضُلُك ، وأمّي امرأةٌ من بني حَنيفَة ، وأُمُّك فاطِمةُ الزَّهراءُ بنتُ رسولِ اللّهِ صلّى اللّهُ عليه وسلّم ، فلو مُلِئَتِ الأرضُ بِمثلِ أمّي لكانت أمّكَ خيراً منها .. !؟

فإذا قرأتَ كِتابي هذا فأقدِم حتى تترضّاني ، فإنّكَ أحقُّ بالفَضلِ منّي .. !! »

وقرأَ الكِتاب ، وفكّر فيه .. إنّه الحقُّ والصّدق ، فلِماذا يأنفُ من كَلِمةِ الحقّ .. ؟!

وقرأ الحسنُ الكِتاب أيضاً ، فعلِمَ أنّه الحقُّ والصّدق ، فلماذا لا يذهبُ إلى أخيهِ يترَضّاه ؟! لقد عرف أخوهُ كيف يقهَرُه ويتغلّبُ عليه !! وفي الوقتِ نفسِه حفظَ لكلٍّ كرامتَه وعزّةَ نفسِه ، فأنعِمْ بها من فكرةٍ جليلة .

وفي لحظةٍ مباركةٍ من تلكَ اللّحظاتِ الّتي يُنعمُ اللّهُ بها على عِباده ، ويشمَلُهم بعَطفِهِ وحنانِه ، ويُضفي عليهم رِداءَ رحمته ورضوانِه .. في لَحظةٍ من هذه اللّحظاتِ اجتمعَ شَملُ الأخوَين ، فاكْفَهرَّ وجهُ الشّيطان ، واستبشرتْ ملائكةُ الرّحمن ..!!